

الدروس التربوية من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ هـ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة **(عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)** تفاريغ من دروس
الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله
ونسأل الله أن ينفع بها.

<https://anaheedblogger.blogspot.com>

:تنبيهات هامة

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح -
- هذه التفاريغ من عمل الطالبات ولم تطلع عليها الأستاذة -
- حفظها الله.
- الكمال لله - عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله -
- وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر
- الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن والعشرون الأحد 28 رمضان 1445هـ

"الزمر (٢٩)"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن أحسن في الختام، فوقاه رب العالمين -وهو الغفور الشكور- أجره وزاده من فضله، اللهم آمين. اللهم أحسن لنا خواتيم هذا الشهر المبارك وأحسن لنا خواتيمنا في أعمارنا، اللهم آمين. نقف اليوم مع مثل من أعظم الأمثال القرآنية، غاية في الوضوح، وغاية في الأهمية، يحتاج إلى كثير من التأمل والتكرار، لتبقى الصورة واضحة في كل الحياة. هذا المثل في سورة عظيمة، **سورة الزمر**، سورة حملت معاني خطيرة في توجه الإنسان وحملت أسماء الله -عزّ وجلّ- عظيمة، يحتاجها الإنسان أبداً، أبداً، حتى ينجو في هذه الحياة. نبدأ مباشرة بدراسة سياق هذه السورة العظيمة، إلى أن نصل إلى المثل. لكن سننبه هنا على تنبيه من أجل أن تكتمل الصورة في أذهاننا، وهو أن سورة "ص" السابقة لسورة الزمر وسورة غافر اللاحقة لسورة الزمر، أكملت معنى السورة ومعنى المثل. بمعنى أن الذي يقرأ

ص والزمـر وؑافر بصورة جيدة سيجـد أن هـذا المثل المضروب في سورة الزمر جمع المعاني العظيمة الموجودة في هـذه السور؁ بل سيتبين أنه جمع المعاني العظيمة في هـذا الدين العظيم؁ ونشير هنا إشارة بسيطة لكي نتصور هـذا الأمر. في آخر سورة ص ورد اسم الواحد القهار واسم العزيز الغفار في الآيات (65) و(66):

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ۖ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
(65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ
الْغَفَّارُ)

هـذه الإشارة التي وردت في سورة ص تدل على وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أنه منذر لأجل هـذا الأمر المهم؛ وهو انفراد الله بالألوهية وأنه الله الواحد القهار؁ والدليل على ذلك أنه رب السماوات والأرض؁ فربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما بينت غاية البيان أنه الواحد القهار؁ ولتكونوا في علاقتكم بربكم بانين هـذه العلاقة على أنه العزيز الغفار؁ العزيز الذي يأخذ العصاة أخذ عزيز مقتدر؁ الغفار الذي يقبل على المقبلين؁ ويغفر للمستغفرين؁ ويتوب على التائبين؁ ويشكر الشاكرين؁ فابنوا حياتكم على ذلك. فهو الإله لا

إله غيره، ولتتنظروا في تدبير السماوات والأرض، ستجدون أثر أنه الواحد القهار. وهذان الاسمان سيؤثران على فهمنا للمثل، نترك سورة ص، وننتقل إلى سورة الزمر التي تتضمن المثل. نستفتح السورة حتى نبلغ الآية الخامسة:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^ق إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ^ج سُبْحَانَهُ^ط هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ^ط يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ^ط وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ^ط كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى^ق أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

يظهر لنا من خلال مطلع هذه السورة المباركة موضوعها الواضح؛ الكتاب نزل من الله، وهو -سبحانه وتعالى- عزيز حكيم، أنزل هذا الكتاب بالحق لهذه الغاية؛ (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) هذا حق الله -سبحانه وتعالى- الدين الخالص.

في مقابل ذلك هناك من اتخذ من دون الله أولياء، وافترضوا على الله ومثلوه بخلقه، فقالوا: "ما نعبد هؤلاء إلا من أجل أن يقربونا إلى الله زلفى"، فما عرفوا الله الواحد القهار، دليل أنهم ما عرفوه أنهم شبهوا الله -عز وجل- بخلقه. هذا التشبيه إنما طرأ على أذهانهم لأنهم جعلوا الله مثل الخلق، يحتاج واسطة، نلاحظ هذا التشبيه الذي جعلهم يظنون أن الله -عز وجل- يحتاج إلى من يقربهم إليه، تعالى الله عن ذلك. مثل هذه القضية أتت القضية الثانية وهي أنهم اتخذوا من اعتقدوا أنه ولد لله. فأجاب رب العالمين أنه: (اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) انظر إلى الأفعال، انظر إلى تسخير الشمس والقمر، انظر إلى نظام الكون، الذي يدل على أن الله هو الواحد القهار. كوننا نغفل عن هذا النظام ثم نخترع من عندنا ونعتقد من عندنا صفات لله ما أنزل بها من سلطان، ولا دل عليها شيء لا في العقل ولا في الكون. يتبين من خلال هذه الآيات المباركات أن ربنا يصف نفسه بصفات الكمال التي لها شواهد واضحة، هو الواحد القهار والشاهد على ذلك نظام الكون الذي لا يخرج عنه شيء، وهذا ظاهر جدًا في

هذه السورة؛ أدلة أنه الواحد القهار. ثم يأتينا انقسام الناس حول هذا المعنى، هناك من يرى أن الكون كله يدل على أن الله واحد قهار، قرأ الكون كما ينبغي، وعرف أن الله هو الواحد القهار، وأن لا أحد ينفع مع الله، وأنه هو وليس أحد غيره -سبحانه وتعالى- وأنت أيها العبد ليس لك إلا الله، وأنه عند كل بلاء أو مصاب أو حاجة فالله، والله فقط؛ لأنه الواحد القهار؛ وحده المتصرف في الكون، وهناك أناس رأوا، سمعوا، فهموا، وهناك ناس انقلبت عليهم الأمور. لذلك حين نقرأ الآية السادسة نجد خاتمتها واضحة.

(خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَآَنَىٰ تُصْرَفُونَ)

هذه الأدلة الواضحة التي لو تأملناها عرفنا أن لا أحد له القوة والقدرة على هذه الأفعال من الخلق والإيجاد سواء نفس الإنسان أو ما سخر له، لكن إلى أي جهة ينصرف الناس في تفكيرهم، وفي النظر إلى الأمور، هذه هي المسألة التي يتخبط الخلق فيها؛ لذلك رب العالمين يشير إلى انقسام الناس في الآية السابعة.

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ^ط وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ
الْكُفْرَ^ط وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ^ق وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ^ق ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^ج
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

سنرجع إلى المعنى الذي تكرر معنا خلال دراستنا
للأمثال؛ الملك يحكم في مملكته يرضى ويسخط، وهو
-سبحانه وتعالى- كما في بداية السورة، **العزیز الحکیم**،
فلتعلموا أنكم لو اخترتم أن تتجاهلوا كل هذه الأدلة الدالة
على أنه الواحد القهار، الدالة على أنه العزيز الغفار،
الدالة على أنه ليس هناك حل لأي شيء، ولا ربط ولا
حركة ولا سكون إلا بأمره، لو تجاهلتم هذا كله فلتعلموا
أن الله غني عنكم، لا تظنوا أنه يتعزز بكم، هو العزيز
الغفار، ومع ذلك الملك يحكم في مملكته كما يريد، فهو
(لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) لأنه سبب للهلاك، سبب
للشقاء. أي نوع من الشقاء؟ هنا في الدنيا هو شقاء، كما
سيتبين في المثل كيف حال الذي له شركاء متشاكسون،
والرجل الذي يكون سلمًا لرجل، (لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ
الْكُفْرَ).

يعني أولاً (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ) لا يضره
كفركم كما لا تنفعه طاعتكم. لكن هو الملك وقد أمركم

وأنتم العبيد في مملكته تستجيبون له، ومع ذلك هو (لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)، لا يرضاه، كما تبين؛ لأنه كامل الإحسان، لا يرضاه، سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم أن هذا سبب لشقاوة الإنسان، لا يرضاه لأن هذا السلوك يخالف ما يجب أن يكون عليه الإنسان من طهارة، وعدم ذل وكرامة. لا بد من أن يحفظ الإنسان على نفسه كرامته، ومن المحافظة على هذه الكرامة ألا يهين نفسه فيقف عند غير الله، ألا يهين نفسه فيكون تحت تصرف المخلوقين الذين يتبعون الأهواء، كل هذا من إكرام الله للإنسان، فالله -عزَّ وجلَّ- (لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) لما سمعنا؛ سبب للشقاء، سبب للإهانة.

(وَإِنْ تَشْكُرُوا) بماذا الشكر؟ الشكر بالتوحيد، الشكر بإخلاص الدين، الشكر بهذه العبادات والطاعات التي نقصد بها الله (يَرْضَاهُ لَكُمْ) هذا الذي يرضاه لكم، لماذا؟ لرحمته بكم، لمحبتة -سبحانه وتعالى- للإحسان عليكم، ولكونكم بهذا تكونون في حالٍ من الكرامة. بالشكر تكون قلوبكم في حالة من الطهارة، بالشكر تتنزهون عن الجحود وتكونون في حال من السلامة من الإهانة، وستكونون بذلك قد فعلتم ما خلقتم لأجله. فلنعلم جميعاً هذا الأمر أنه -سبحانه وتعالى- غني (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ

الْكُفْرَ)، (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)، وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم، كذلك بعضكم مع بعض، كل منكم له عمله من خير أو شر، ثم تعودون إلى رب العالمين فينبئكم بما كنتم تعملون، وهو -سبحانه وتعالى- عليم بذات الصدور، عليم بما تحمله القلوب، عليم بجهد الإنسان أن يطهر قلبه أو إهمال الإنسان لطهارة قلبه.

لاحظنا أنه -سبحانه وتعالى- **(وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)** ويرضى لهم الشكر، والسبب هذا إحسان من الله؛ لأن الكفر يشقي الإنسان، ولأن الكفر سبب لإهانة الإنسان وسبب لحيرة الإنسان وتشتته، في مقابل التوحيد سبب لسعادته في الدنيا وفي الآخرة. هذا الخبر العظيم سيقابله شخصان يتصرفان في موقف من المواقف التي يريد الله -عزَّ وجلَّ- بها أن يرشد الإنسان، يوقعها على الإنسان ليرشده. هو موقف واحد وهناك شخصان أمام هذا الموقف.

كنا قد بدأنا في الكلام عن مطلع السورة، وكيف أن في مطلعها قد بين -عزَّ وجلَّ- أنه الواحد القهار، وأنه العزيز الغفار، إلى أن وصلنا إلى أنه -سبحانه وتعالى- غني عن العباد **(وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)، (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)،** هذه المسألة هي حكم الملك في

مملكته. والله -عزَّ وجلَّ- لا يرضى الكفر لإحسانه لخلقه حفظاً لكرامتهم. ثم تبين لنا أن الله -عزَّ وجلَّ- ذكر حالتين تقابل حالتى الكفر والشكر، فى الآية الثامنة والآية التاسعة.

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

حين ننظر لهاتين الآيتين سنرى إنساناً مسه الضر، وهذا من الابتلاءات التى يبتلى بها الله -عزَّ وجلَّ- الإنسان ليكشف له الحقيقة، وليستتير بصره وليعرف طريقه من أجل ألا يعيش فى الشقاء، يبتلى بالضر لتتكشف له الحقائق. فانظر إلى هذه الحالتين؛ حالة إذا مسه الضر دعا الله منيباً إليه، ثم إذا أتته النعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل، والتفت قلبه لغير الله، وجعل لله أنداداً. وهذه الحال يخاطبه رب العالمين فيقول له: (تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا) تمتع بهذا الكفر قليلاً وأنت تظن أنك ستتمتع، ثم ستكون من أصحاب النار. فى مقابل هذا

الإنسان الطائع العابد، الذي في كل أحواله منيب إلى ربه، ليس وقت ما يصيبه الضر، إنما هو منيب إلى ربه في كل حال؛ أصابه الضر لا يعرف إلا الله، أصابه الخير لا يشكر إلا الله. هذا الإنسان يفهم أن الحل الوحيد هو الله؛ لذلك يأتي المثل يبين لنا كيف أن الإنسان يتوه في الحياة ورب العالمين يحب لهذا الإنسان أن ينجو، يتوه في الحياة، يتصور أن هذا يعطيه، هذا يمنعه، هذا ينفعه، هذا يضره، مسكين لا يدري أن كل الأمر بيد الله، فتراه يسلك مسالك لا تصح لإنسان عاقل، فيطلب من الفقير أن يعطيه، ويطلب ممن يساويه في تعرضه للمرض أن يشفيه، وترى في ذلك الناس أصنافاً وأصنافاً. في مقابل هذا القانت الذي هو دائماً متجهاً لربه، سائلاً وراجياً، ما عنده إلا الله، وانظر إلى هذا الوصف؛ **(قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)** نلاحظ أنه يرجو رحمة ربه، هو يفهم أن كل شيء بيد الله، يفهم هذا فهماً جيداً. نركز في هذا المعنى لأن السورة حين تسير معنا ستوصلنا إلى المثل.

تكرر في هذه السورة هذا الأسلوب المميز، **(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ)**، **(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ)**، **(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ**

سوء العذاب) وكل هذه أسئلة يُسألها الإنسان، ويراد من الإنسان التفكير والتدبر، إلى أن نصل إلى المثل الذي تقدم قبله تلخيص حال الخلق الذين مر معنا الكلام عنهم. نقرأ الآية (22) لنرى تلخيص حالهم:

(أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

الآية قسمت الناس قسمين:

القسم الأول: قوم شرح الله صدورهم للإسلام، وسّعها لقبول الدين ولقبول الشرع، وهذا بلطفه - سبحانه وتعالى- لكن هم أتوا بالسبب، **والسبب** رغبته في رب العالمين، رغبته فيما عند الله، نظرهم في الآيات، في الأدلة، فيما يعين في الوصول لهذا الحق. فرب العالمين أعطاهم - سبحانه وتعالى- ومدّهم. والآن سنسمع أنهم على نور من ربهم، على بينة ومعرفة واهتداء للحق.

يقابلهم **القسم الثاني:** هذا الوصف؛ القوم الذين قلوبهم قاسية من قبول ذكر الله؛ لشدة ميلهم إلى الملذات البدنية، لشدة إعراضهم عن الحق، لشدة امتناعهم عن التفكير فيما يوصلهم إلى الحق. هؤلاء قال الله - عزّ

وجلّ:- (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)، قسوة قلوبهم جعلتهم بعيدين عن الحق، قسوة قلوبهم جعلتهم يمتنعون عن ذكر الله، (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ) معنى ذلك تجري النعم فلا يقولون: "ربنا رزقنا"، يأتيهم الموقف بعد الموقف فلا ينتفعون منه، كما سيتبين. فهؤلاء وصلوا إلى أن تكون قلوبهم قاسية. سنرى الآية التالية أيضًا تشير إلى طريق هؤلاء والآية التي تليها طريق الآخرين. نقرأ الآية الثالثة والعشرين:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ)

هؤلاء انتفعوا بما أنزل الله، أشارت الآية إلى أن قلوبهم ليست قاسية، بل إذا سمعوا هذا الكلام العظيم؛ كلام رب العالمين تقشعر منه جلودهم، هؤلاء الذين يخشون ربهم، ثم تلين هذه الجلود والقلوب إلى ذكر الله، هؤلاء قبلوا الهدى فهداهم الله، يقابلون القاسية قلوبهم. نقرأ الآية التالية وسنرى وصفًا لهم أيضًا:

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ
لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

أيضًا هذا وصف لإنسان يؤمن بالغيب، ما حاله؟
(يَتَّقِي بِوَجْهِهِ)، الذي هو أشرف أعضائه، (سُوءَ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كيف يتقيه؟ يتقيه بالبذل والعطاء والعمل
لرضا الله، فهذا كله مركب على من شرح الله -عزَّ
وجلَّ- صدره للإسلام. يقابله (وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)، الذي شرح الله صدره للإسلام وقد تبين
لنا أنه شُرح صدره للإسلام لأنه هو أتى بالسبب، هو
أقبل على رب العالمين، فهو على نور من ربه. هذا إذا
سمع الآيات يقشعر جلده ثم يلين جلده وقلبه إلى ذكر
الله. هذا يمشي في الحياة يتقي بوجهه أن يصيبه العذاب،
في مقابل ذلك القاسية قلوبهم، لا يسمعون القرآن ولا
تلين جلودهم، ولا يفكرون في الآيات ولا تتحرك
قلوبهم. هؤلاء القاسية قلوبهم لا يتقون بوجوههم النار،
بل تجدهم زِينٌ لهم سوء عملهم، فيقبلون على موجبات
النار كأنهم يقبلون على السعادة. **هذا معنى.**

معنى آخر (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ) كأن هذا وصف يقابل الوصف السابق، الشخص
الأول الذي حين يسمع القرآن يقشعر قلبه، هذا الذي

شرح الله صدره للإسلام، أما القاسية قلوبهم فهم لا يتحركون، ويوم القيامة ماذا يكون حالهم؟ يأتون يريدون أن يتقوا بوجههم سوء العذاب، فلا يجدون وقاية تنجيهم من ذوق العذاب، هذا معنى آخر، فتكون هاتين الآيتين بيان للآية الثانية والعشرون:

الأول: الذي شرح الله صدره للإسلام يقشعر جلده حين يسمع هذا القرآن ويلين جلده ويلين قلبه.

في مقابل الثاني: قاسي قلبه فحين يأتي يوم القيامة يبحث عن شيء ينجيه فلا ينجو.

رب العالمين أخبرنا هذه الأخبار ونحن مستصحبون حال إنسان رب العالمين يريد أن يكشف له الحقيقة، فيمسه بضر، فتجده وقت الضر يلجأ إلى الله ثم يتركه ويذهب إلى الأنداد، في مقابل ذاك العبد الذي هو (قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ) تصور هذا وتصور هذا.

أيضًا تصور الذي شرح الله صدره للإسلام وقلبه مطمئن، وآخر قاسي قلبه، وبعد أن نتصور هذا تأتي الآيات من (27) إلى (29):

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ
وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

هنا مقدمة عظيمة لهذا المثل. رب العالمين يخبرنا
أنه قد ضرب في هذا القرآن (مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ)، معنى ذلك أن رب العالمين يريد منا أن نهتم
بهذه الأمثال، هو نزل أحسن الحديث، والمتأثرون به
تلين قلوبهم، ومن أخص ما في القرآن الأمثال، خُصَّتْ
أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت
البصائر للتدبر في الأمثال لأنها تختصر معانٍ عظيمة،
ويطبق عليها أحوال كثيرة، فرب العالمين يريد منا أن
نتذكر، (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ). رب العالمين يضرب الأمثال
من أجل أن يحصل التذكر، ما هو التذكر؟ التأمل
والتدبر لينكشف للمتأمل ما هو غافل عنه، سواء شيء
سبق له العلم به فَنَسِيهِ، وانشغل عنه بسفاسف الأمور،
أو أمور لم يسبق له علم بها فيستبصر بهذه الأمثال
وتنكشف له الحقائق، فمعنى التذكر هنا معنى عظيم، إذا
صادف قلبًا صافيًا ونفسًا مجردة عن المكابرة، ونفسًا

بعيدة عن الغفلة يحصل هذا التذكر فيكون التذكر سبباً في قوة الإيمان للمؤمنين، وسبباً للإيمان بعد الكفر للكافرين. أما عدم تذكر الناس فهذا بسبب غرقهم في الدنيا وانشغالهم بها.

هذا القرآن العظيم (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، إذا تفكروا في الأمثال واهتموا بالقرآن ستكون النتيجة أنهم يتذكرون، (لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، (لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) إذا تذكروا يُسرت عليهم التقوى وإذا تذكروا واتقوا لن يكونوا مثل الذي يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة فلا يجد ما يتقي به (وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ). يأتينا المثل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

حين نقف عند هذه الصورة العظيمة التي قربها لنا رب العالمين، سنجد أننا نحتاج أن نفهم بعض الأمور المتصلة بحال ضرب المثل، هنا تصور رجل، هذا الرجل مملوك اشتراه أصحاب المال، وكان في طبيعة الشراء في تلك الأزمنة، أنه يمكن أن تشترك مجموعة

في شراء عبد فيكون خادماً للمجموعة، معنى ذلك أن هذا العبد فيه شركاء.

العبد الثاني الذي يقابله ليس له إلا سيّداً واحداً، فالسؤال (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟) ثم قال رب العالمين: (الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) في ظاهر المسألة أنت ترى المثل في غاية البساطة والوضوح، وهو كذلك الحمد لله، وهو في غاية العمق. نبدأ أولاً بالتفكير في أن الإنسان العاقل يهرب من الشركاء المتشاكسون، هذه هي الحقيقة؛ الإنسان العاقل يبذل جهده أن يكون بعيداً كل البعد عن أناس يتشاكسون ويختلفون وهو سيكون ضحيتهم، لا يدري إلى أين يذهب ومن يخاطب، كل الناس لا يحبون أن يكونوا تحت سيطرة أحد هو بنفسه مختلف مع شريكه ويبقى هو في دوامة، وانظر إلى إبراهيم -عليه السلام- وهو يحاج قومه، انظر إليه وهو يقول: (هَذَا رَبِّي)⁽¹⁾، (هَذَا رَبِّي)، كل هؤلاء الذين كان يعبدهم قومه؛ لأن قومه كانوا يعبدون هذه الكواكب والنجوم وما في السماء مما يعتقدون أن له التدبير والقوة، فانظر إلى موقف إبراهيم -عليه السلام- كيف كان لا يريد هؤلاء الذين يمكن أن يتنازعوا في القوة؛

⁽¹⁾ (الأنعام: 77).

لذلك قال: (هَذَا أَكْبَرُ) للشمس، (هَذَا أَكْبَرُ) يعني يمكن أن يكون بيدها التدبير الأعظم، معنى ذلك أن هذا يملك تدبيراً وهذا يملك تدبيراً، هو لا يريد ذلك. إلى أن وصل إلى هذه المرحلة التي يشعر فيها الإنسان بلذة التوحيد. نلاحظ أن إبراهيم -وهذه لذة التوحيد- قال: (لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) هو يعرف أنه لا بد أن يكون الرب واحداً، هادياً، بيده تدبير الأمور، هذا الشعور جعله لا يريد أن يكون له رب يظهر ويختفي، يدبر شأنًا ولا يدبر غيره، يجده في النهار ولا يجده في الليل، لا يريد التشتت. نحن نفكر في كلمة (شُرَكَاءُ) ثم نصل إلى كلمة (مُتَشَاكِسُونَ)، (شُرَكَاءُ) هذه عيب وحدها، والتشاكس عيب آخر.

تصور الكوكب والقمر والشمس كأنهم الشركاء في قلب الإنسان، يتجه لهذا في الليل ويتجه لهذا في النهار، هذا يظهر نوره في هذا الوقت، هذا يظهر نوره في هذا الوقت، وهذا أكبر فستكون له السلطة الأعظم، وهكذا الإنسان في الحياة، ما حاله؟ يجد نفسه هذا يمد له وهذا يمد له كأنه سينقذه، يمد له كأنه سيعطيه، وقلبه يذهب مع هذا ومع هذا، والحقيقة أنه لا يوجد أحد إلا الله، لا حل إلا عند الله، انظر إلى إبراهيم -عليه السلام- قال:

(لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) بهذا الوضوح؛ لا حل إلا عند الله، لا يوجد وضع أنت تستقر به إلا أن يكون أتى من جهة الله. هذا المعنى نلحظه في موقف المرأة في سورة المجادلة، أتت المرأة للنبي -صلى الله عليه وسلم- تجادل النبي -صلى الله عليه وسلم- تشتكي زوجها: "إنه قال لي كلمة الظهار وماذا أفعل؟" والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لها: "يا خُوَيْلَةُ ما أَمَرْنَا فِي أَمْرِكَ بِشَيْءٍ"⁽²⁾، فتشتكي المرأة إلى الله! هي بين يدي رسول الله، لكن تشتكي إلى الله، تعرف أنه لا حل إلا عند الله. انظر إلى الثلاثة الذين خلفوا، النبي -صلى الله عليه وسلم- معهم وعندهم، ومع ذلك ما نفعهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإنما انتمر بأمر الله. متى حصلت لهم النجاة؟ حصلت لهم النجاة لما (ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)⁽³⁾، هذه الحال التي حين تتمثل أمام الإنسان يذوق طعم التوحيد وحلاوته، ويذوق الراحة التي تحصل من وراء توحيد رب العالمين. في مقابل أن الإنسان حين يفكر أن الحل عند فلان أو عند علان، أو عند كذا، وتجد أن فلاناً

⁽²⁾ أخرجه البزار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (1513).

⁽³⁾ التوبة: 118.

يقترح عليك أمراً، وهذا يقترح عليك، ويدبرونك
ويسئون تدبيرك ثم تنقم على فلان وتنقم على علان،
وتقول: "يا ليتني لم آخذ برأي فلان ولا رأي علان"
والخطأ منك! أنت لا تبدئي أبداً إلا من عند الله، إذا
طلبت هداية لا تبدئي إلا من عند الله، إذا طلبت توبة
فليس إلا الله، إذا طلبت حاجة فكل الحاجات ملك الله.
البداية من عند الله، ولذلك انظر كيف يوصل لنا رب
العالمين هذا المعنى بأيسر ما يكون.

تصور إنساناً له حاجات كأي إنسان، من أجل أن
يقضي حاجاته المتنوعة، فيطلب من هذا ويطلب من
الثاني ويطلب من الثالث حاجته، يريد مალًا يجد نفسه
يتذلل عند هؤلاء وينكسر عندهم، يريد شفاءً تجده عند
الطبيب يترجاه، تريد سعادة فتشاور هؤلاء الذين قد
يشيرون عليها بما يفسد حياتها! فتصور إنساناً فيه
شركاء، مثل رجل مملوك لكنه ليس مملوكاً لرجل
واحد، لكنه مملوك لجماعة فكلّ يوجهه لما أراد.
والأسوأ من ذلك أن تكون الجماعة متشاكسة. هو
مريض وذهب للأطباء وهذا يقول له: "كل هذا ففيه
الشفاء"، ثم ينتقل إلى الثاني لسبب ما، يقول له: "من
قال لك أن تأكل هذا؟ هذا ما أفسد عليك." ويذهب للثالث

يريد أن يعالج شيء آخر، فيقول له: "ما أتاك المرض إلا أنك اتبعت ذاك الإرشاد!" فيتوزع قلبه، وتجد أن هؤلاء الشركاء متشاكسون. فتصور حين يدخل عند هذا وعند هذا فتجده يقول: "هؤلاء لا يفهمون، هؤلاء قد أفسدوا الطب، وهؤلاء قد فعلوا كذا." أو يذهب إلى مستشارين أسريين، أو مستشارين في التربية، فهذا يفتيه: "ألا تضرب ابنك أبدًا، ولا تمسه بالسوء ولا توجهه بكلمة، واتركه حرًا يفعل ما يشاء وسيتربى ويكون عنده عقل" وهذا يقول: "احبسه"، وهذا يقول: "اضربه"، وهذا يقول: "لا تضربه"، وهذا وكلّ يعيب في غيره، سيئوا الأخلاق يتجاذبونه وكلّ يسخره لفكرته، وكلّ يشغله من أجل أن يخدمه، وأن ينشر عنه، وأن يؤيده وأن يدعمه...إلى آخره. فتجد هذا الإنسان متحيرًا متوزع القلب لا يدري أين الحق!

مثل حين يكون هناك عبد أسياده الذين يوجهونه ويطلبونه ويأمرونه، متعددين، هذا أكيد سيكون متحيرًا متوزع القلب، لا يدري أيهم يرضي لخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجته. لا يدري يرضي من في الخدمة ولا يدري يعتمد على من في الحاجة، تصور هذا الذي عنده قائمة بمن يستشيرهم في تربيته، أو من يستشيرهم في

صحته أو من يستشيرهم في كذا وكذا من شؤونه، قائمة
تشتته. وتصور الثاني: (وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ) ليس له إلا
سيدًا واحدًا لا يتجه إلا جهته ولا يسير إلا لخدمته، فهمه
واحد، وقلبه مجتمع، تصور هذا كلما احتاج شيئًا طلب
من سيده، وكلما أمره سيده وجد عنده من القوة والعزيمة
على الفعل لأنه لا يخدم إلا هذا السيد. هناك شركاء كلهم
مشاركين في الحظوظ والشهوات، وأيضًا متشاكسون،
مختلفون، عسيرون، يتجادبون، كلّ يريد أن يأخذ هذا،
مع سوء الأخلاق وضيقها، وقباحة الشركة، فليس أحد
منهم يرضى بالإنصاف وهو لا يقدر أن يرضيهم. في
مقابل هذا الرجل السالم من النزاعات، لا شركة معه،
فتجد هذا الذي هو (وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ) يستطيع أن
يرضيه مع الراحة من تجاذب الشركاء، فتصور، هذا
الأمر في الحياة، وهنا يجب أن نؤكد أن لا تخيفكم
الأسباب وتجعلكم لا تجمعون قلوبكم على الله، إن الله هو
الأول رب الأسباب، إذا أقدمت على شيء استخر الله،
إذا أقدمت على مهمة عظيمة استغث الله، إذا خفت من
شيء اهرب إلى الله، إذا رجوت شيء فسل الله، ثم إذا
مد لك بالأسباب، خذ الأسباب واستعن بالله، وانتظر من
الله العطاء.

انظر، كما مر معنا، (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)، الله لا يرضى لعباده هذا الشتات، لا يرضى لعباده هذه الإهانة، لا يرضاه، ولذلك هناك في البداية لما سمعنا عن هذا الذي إذا مسه الضر دعا ربه منيباً إليه (ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا) وذهب هنا وهنا، وتعلق بهذا وهذا، في مقابل الثاني (قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ) متجه إلى الله، البدايات عنده من الله، ليس هناك حل إلا الله، عند هذا الله هو الحل الوحيد؛ لذلك في الآية التاسعة (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) هنا في المثل لما انكشفت الحال وتبينت، هل يستويان؟ الرجلان هل يمكن أن يكونا متساويين في الحال؟ لا يمكن أن يستوي الرجل السالم مع الرجل الذي وقع فيه التشاكس. الرجل السالم في غاية الحسن، هذا هو القانت المخلص، ما له إلا واحد، هو (قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ)، ومن هو الواحد؟ هو الواحد القهار، كما أخبر -عزَّ وجلَّ- في هذه السورة، وهو العزيز الغفار. فهو لمن يتجه؟ للواحد القهار، لمن كل شيء بيده، من سينفعه غيره؟ في مقابل الرجل الذي وقع فيه التشاكس، هذا في غاية القبح.

هذا الذي إذا ضاقت عليه الأمور ذهب لرب العالمين،
إذا انفتحت له الأمور استغنى عن رب العالمين، والله
هو الغني عنه! فهذا الذي يحصل له هذا الشتات؛ لذلك
يذهب إلى هذا السبب وهذا، وهذا، مسكين! يعتقد أن
الأسباب تنفعه من دون الله وإنما هي بيد الله.

ولذا نفكر في آية سورة يونس التي مرت معنا، رب
العالمين يقول: **(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)** لكن
الناس يعتقدون أنهم يسIRON بقوتهم. هذ السير رب
العالمين يختبره للإنسان، الإنسان معتمد على الأسباب،
غير مقتنع أن رب العالمين هو الذي يحمله، قرب
العالمين يضعه في موقف حتى يكشف له الحقيقة، **(حَتَّىٰ
إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ)** هذه الأسباب
متوفرة تمامًا، **(وَفَرَحُوا بِهَا)**، بعد توفرها **(جَاءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)** وهذا من
العجائب لأن الموج يأتي من مكان واحد، لا يأتي من
كل مكان، لكن لتظهر قدرة الله، **(وَضَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ)**
لما حصل هذا **(دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)** نفس هذه
الحالة، كان عندهم شركاء والأسباب، وعندنا ومتوفر،
وكل شيء عندنا، ويجرون وراء هذا السبب، ويجرون
وراء هذا السبب، ويأتون بهذا السبب، وهذا السبب

يظهر فيه نقص، ويفعلون، ويفعلون، ورب العالمين
يقلب عليهم كل الأسباب. على قدر ما فرحوا بتوفر كل
الأسباب (جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) سقطت الأقنعة (دَعَا اللَّهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

هذا هو نفس المعنى الذي نجده في سورة الزمر،
النفوس متعلقة بأسباب كثيرة، ربما ما وصلوا إلى حد
أن يكونوا شركاء، نعم، لكن هذه النفس ناسية رب
العالمين، ناسية قبح أن يكون لها في كل موضوع أحد
تتجه إليه، وتميل إليه، كيف حين تكون دائما نقطة
الانطلاق واحدة، وأنت تقدم على أي شيء تقول: "يا
رب يسر لنا، يا رب بيدك ملكوت السماوات والأرض،
يا رب سخر لنا، بيدك ملكوت السماوات والأرض
دبرنا." لذا كم يسيء المدبرين من الخلق، في حكم
المستشارين اليوم، حين ينطلقون من عند آرائهم وليس
من العلم الذي جاءهم ومن الاستعانة والاستغاثة برب
العالمين. رب العالمين يقول: (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ
لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) في مقابل (هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) هؤلاء لا يعلمون ماذا؟

لا يعلمون أنهم تحت رهن الشركاء، لا يعلمون أنهم اختاروا لأنفسهم أن يحكمهم شركاء متشاكسون، لا أحد لا يعرف أن عبدًا تحت شركاء متشاكسون لن يكون أحسن من حال الذي سلّم، هذه معلومة واضحة، لكن الذي لا يعرفه الإنسان ما اختار الإنسان لنفسه، فكم أناس فيهم شركاء متشاكسون وهم لا يشعرون. التوحيد! التوحيد هو الحل الوحيد! ما لك إلا رب العالمين، رب العالمين ليس حلًّا من الحلول، رب العالمين توحيده هو الحل فقط! ولا يشاركه شيء من الحلول.

نسأل الله بمنّه وكرمه، أن يجعلنا من الموحدين، الصادقين البارين، العابدين المكرمين بتوحيد رب العالمين، اللهم آمين. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.